﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾:

السماوات هي السبع، والأرض هي السبع، وهما تعبيران عن الكون كله، وفيه ككل ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالإيمان هو الذي يفتح البصائر والأبصار لتلقّي الأصداء والأضواء والأنداء، حيث يخالط القلوب بشاشته ويحركها استجاشة، فتحيا وتلتقط من الكون كله آيات ويصبح الكون كله لدى المؤمن آيات بينات، فلا يواجه طرفاً من الكون إلا وهو آية تزيده إيماناً بالله!.

إن آية السماوات والأرض وما فيهما من آيات لا تقتصر على شيء دون شيء ولا على حال دون حال، فإنها آيات الله على أية حال «وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع»!

ولكن لمن؟ لمن أبصر بها فبصّرته، دون من أبصر إليها فأعمته، والآية هي هي بنفسها وإنما الاختلاف في شبكات الأبصار، قوم عنها عمون، وآخرون وهم قلة يبصرون ويتبصرون حيث هم مؤمنون! إنها آيات الله وكلماته، تحدثّهم عن الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1] فإن البحر بمداده ومدده آية وكلمة لربي بقطراته، إذاً فلا تقف كلمات الرب لحد تحصى ونحن فيها غرقى، في بحر ملتطم من كلمات الله وآياته الدالات، ولا مدلول في الكون يملك من براهين الآيات ما يملكها الله! لو مدّ الإنسان ببصره، وفتح غشاءَ قلبه وغطاء بصيرته في الأرض والسماوات لتزاحمت الآيات وتراكبت عليه معلنة عن نفسها، دالة على خالقها لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وكما أن كتاب التدوين فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، كذلك كتاب التكوين، فلنرجع متشابهاته إلى محكماته، اتضاحاً لكيانها ودلالتها على بارئها العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم!

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

السماوات والأرض آيتان، وفيهما وما بينهما آيات، آيات فيها آيات ودلالات لا تجد فيها قيد شعرة إلّا ذات دلالة على العزيز الحكيم الرحمن الرحيم!

وترى إذا كانت آيات الأرض والسماوات خاصة للمؤمنين، فالكافرون قُصَّر لا يدركونها، فلماذا يُؤنّبون ويعذّبون؟ إنها آيات لكل الناظرين، وحيث لا ينتفع بها إلا من يمشي سبيل الإيمان فهي إذاً آيات للمؤمنين، كما القرآن هدىً للناس أجمعين، ولكن لا يهتدي به إلّا المتقون فـ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١] فـ «المؤمنين» كـ «المتقين» هم الذين يفتحون أبصارهم ببصائرهم فهم بآيات الله يهتدون.

فأوليات درجات الإيمان تحصل بنظرة بسيطة في سائر الكون، ثم توصل إلى يقين الإيمان بنظرة عميقة في مظاهر الحياة فإنها أغمض، ثم نظرة أعمق في موجبات الحياة وهي أغمض وأعمق، فالأولى لقوم يؤمنون والثانية لقوم يوقنون، والثالثة لقوم يعقلون، خطوات ثلاث يتدرّجها السالك إلى الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟!.

تلك هي سفرة في سائر الكون، شاسعة فيه آيات للمؤمنين، فإلى سفرة أخص منها وألمس، حيث الحيويّة الناطقة بآياته تزيد المؤمن إيقاناً:

﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾:

فآية الدابة وأنتم منها، تزيد على سائر الكون حياة ملموسة، مادية ملموسة مزيجة بلطيفة ملكوتية غير ملموسة، مما يزيد التدبر فيه يقين الإيمان وإيمان اليقين.

دابة مبثوثة في بعدين، بثّ أوّل بين السماوات والأرض: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[٢].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

وبث ثانٍ استمرارية التناسل بين زوجيها في كلٍّ من السماوات والأرضين، كما وأن قرن ﴿خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ﴾ بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يلمح بوجود دواب في السماوات كما في الأرضين، الشاملة لكل من يستحق خطاب «كم» ففي السماوات عقلاء الدواب كما في الأرض من جن وإنسان أم أياً كان.

فـ ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ وخلق ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ حيث مجال الإتقان هنا أوسع لمكان الحياة في كل دابة وبثّها على قدر:

هنالك بث في الزمان وبث في المكانة وبث في المكان، لو لم تكن يد ضابطة وممسكة بزمام الدواب في كل بثّ لانبثت وتفاوتت وتهافتت.

فالنسور والأسود جارحة وعمرها مديد وبأسها شديد، ولكنها قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرازير في نسلها الكثير الغزير، فلو كانت كما النسور لم يبق لها أثر، فسبحان من خلق كل شيء بقدر.

وذبابة واحدة تبيض في كل دورة مئات الألوف ولكنها لا تعيش إلّا زهاء أسبوعين، فلو كان فلت في الزمان دون لفتٍ ونظام قاصد حكيم، فعاشت الذبابة أكثر من صالح النظام لغطّت كلّ الأجسام ولألحقت الأضرار الجسام.. وهكذا كل دابة في كل بثّ وبثّ لا تنبث إلّا على قدر، ففي خلق ما يبث من دابة آياتٌ لقوم يوقنون!: تستيقن قلوبهم أن من ورائها مدبر قدير عليم حكيم سبحان الخلاق العظيم!

ومن هنا نقلة في خطوة أعمق وأعرق، حيث التفتيش عن موجبات الحياة في الأرض والسماوات.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾: ١٠٣

خطوات ثلاث في ساحة الآيات لقوم يؤمنون ويوقنون ويعقلون، وكمال

الإيمان هو الإتقان، وكمال الإتقان هو عقل الإيمان والإتقان، تنتجها هذه السفرات الثلاث من الخلق إلى خالق الخلق، سبحان العظيم المنان!

اختلاف الليل والنهار لا تعني تفاوتاً بينهما بتضاد وابتداد، فإنه آية التضاد، وإنما تعني مجيء كل خلف الآخر كسناد وعتاد: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١] ﴿. . . لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢] ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[٣].

فلو كانت هنالك صدفة عمياء لكان الفعل واحداً دون اختلاف! ولو كان الخلق من شركاء متشاكسين فيما يخلقون لما تواتر الليل والنهار خلف بعض بهذا النسق والنظام!. فالليل الراحة اللباس، والنهار المعاش، يتعاملان في صالح الإنسان، بما فيهما من آيات كونية أخرى لأولي الألباب الذين يعقلون ويتقون.

ليس اختلاف الليل والنهار إلّا نتيجة دورات دائبة للأرض حول نفسها وشمسها، عائمة سابحة في الفضاء، دون دعامة ترونها تدعمها وتمسكها على فلكها وتديرها في مدارها، إلّا قدرة العزيز الجبار، سبحان الخلاق العظيم!

ثم وهذه الدورات لو كانت أسرع أو أبطأ مما هي الآن لاستحالت الحياة على الأرض، أمّا ذا من مخلّفات ومقدمات اختلاف الليل والنهار لقوم يعقلون، كلما تقدم العقل تقدمت هذه الآيات في دلالات ودلالات، سبحان الخلاق العظيم!.

ولفتة ثانية في هذه الخطوة تلفت أنظار ذوي العقول، هي تكملة الحياة الأرضية بنازل السماء:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة يونس، الآية: ٦.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

ورزقها النازل منها من رازقها إلى مرزوقها في الأرض يعم كل نازلٍ منها ينفع الأرض وأهلها، من مطر ووَقْدٍ وَبَردٍ، ومن نورٍ ونارٍ من شمس وقمر ونجوم.

فشمسها بنارها تزجي سحاباً من الأبخرة الحصيلة بإشراقها فترجع ماءً صافياً بقدر، كمصفاة دائبة الإصفاء كما الأرض تُصفى في خلالها، ثم النار النور من شمسها تساعدان على إنماء ثمارها ودوابها من إنسانها وسواه، أمّا ذا من عوائد مشرقة بذلك الإشراق، حيث تتعامل نازلات السماء - ما ظهر منها وما بطن - في إحياء الأرض بعد موتها ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

فلو كانت الشمس ناراً دون نور، أم نوراً دون نار، أو انحصر ماء السماء بحارٍّ دونَ بَرَدٍ، أو بَرَدٍ دون ماء، أمّا ذا غير ما هي الآن، لانحسرت الحياة عن الأرض أو ما حصلت، ومن ثم: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ...﴾ تصريفه الرياح، وتصريف الرياح السحاب المسخر بين الأرض والسماء، فلولا هذا التصريف أو ذاك لما انصرفت الرياح إلى حيث يصلح، ولتصريف الرياح علاقة بارزة بدورة الأرض وظاهرتي الليل والنهار والرزق النازل من السماء، وعلاقة أخرى بتدوير وتدبير الأمطار، وتمويج البحار والأنهار، أمّا ذا من رحمات مقصودة لله الواحد القهار، حيث تتعامل في تجاوب عاقل لصالح الحياة على الأرض، لولاها لصعبت أو استحالت: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾:

هنالك إيمان بآيات الله فإيقاناً وعقلاً عنها دلالة على الله، وإيمان بالله مدلولاً عليه بتلكم الآيات، فهل هنالك دليل أهدى من آيات الله، أو مدلول أقوى من الله ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟.

وترى آيات الله حديث فإنها حادثة بما خلق الله، فهل الله نفسه كذلك حديث؟ هنا حديث في ذاته ودلالته هي آيات الله، وثم حديث في كونه مدلولاً عليه سرمدي في ذاته هو الله، فإذ كان الله ولم يكن معه شيء، فهو الأزلي فوق حديث، وإذ عُرف الله بعد خلقه آياته فالتبصّر بها فالإيمان به، فهو حديث في الإيمان به، فبأي حادث في الكون بعد الله معرفة به وإيماناً وبعد آياته يؤمنون، فالله تعالى مدلولاً بآياته دون ذاته حديث، كما آياته حديث، أو أن ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ تعني بعد حديث الله في كتاب التدوين القرآن، وبعد حديث آيات الله في كتاب التكوين، تؤمنون.

فمن الحديث مبصر ومسموع يُعقل، ومنه غير مسموع يعقل، ولا ثالث للحديث، فهل بعد كتاب الله حديث فوقه أو مثله، وهل بعد آيات الله في سائر الكون حديث فوقه أو مثله؟

لسان التدوين يحدثكم بأفصح بيان وأبلغه، ولسان التكوين يحدثكم بأفصح بيان وأبلغه، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[1] تدوينا وتكويناً ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾[2]!.

فأنتم بين من لا يفهم أي حديث يدل على ما غاب من علم؟ فكالأنعام وأضل سبيلاً! أم تفهمون حديثاً به تعرفون فتؤمنون.

(١) سورة الملك، الآية: ٣.
(٢) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

فهل في الكون حديث أبلغ من كتابي التدوين والتكوين، والكون كله آيات الله، وكتاب الله يحدثكم عنها وعن شرعة الله، فإذ لا تؤمنون بحديث الله القرآن، وبحديث آيات الله الكون، محدّثان بليغان ما أبلغهما عن الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

فإما كفر مطلق بكل حديث، أو إيمان مطلق بالله حيث يحدثكم عنه كل حديث، فنفسك حديث، وعالمك حديث، وكتاب الله حديث، يحدثك بلسان الفطرة والعقل، بلسان الحال والقال، بلسان التدوين والتكوين، وبكل لسان يفهمه أي إنسان، فإذ لا يؤمنون بحديث الله وآياته ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟

أنت وكل كائن يحمل عقلاً أو أية مرتبة من الإدراك، تعيش كوناً كلّه آية، وكله لسان، وكله حديث، يحدثكم عن حكمة واحدة بارعة وتصميم فكيف به تكفرون وبكل ما تشتهون تؤمنون: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[1] ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2].

حديث الله القرآن هو أحسن حديث ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾[3] والكون - وهو أحسن الحديث - كله آيات الله، محدّثان عن الله ما لهما من مثيل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة المرسلات، الآيات: ٤٦-٥٠.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾:

الإفك هو كل مصروف عن وجه الحق ووجهته، قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً أما ذا من صرف عن الحق، فالأفّاك هو المبالغ في الإفك، والأثيم هو الذي يعيش الإثم كأنه لزامه في حياته، والأفاك الأثيم هو الذي يسمع آيات الله البينات من تدوينية القرآن وتكوينية الكون، ويسمعها تتلى عليه، ثم يصر مستكبراً، في استكبار صارم عارم، دون أن يهتدي بها إلى الله، كأن لم يسمعها، فبشره بعذاب أليم.

ويل لفطرته المحجوبة، وعقله الغارب، وقلبه المقلوب، وكل كيانه الإنساني المتغافل عنه، ويل في أولاه وأخراه، في مبدئه ومنتهاه، فهو ويل في مقاله وفعاله، في حلّه وترحاله، وي كأنه الويل كله، أو كأن الويل هو هو كله، فهم شياطين وتنزّل عليهم الشياطين: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾[1].

وإنها صورة بغيضة متكررة في كل جاهلية، لو أن لها بشارة فهي عذاب أليم، فضلاً عما لها من نذارة، إذ تعجز عن تعبيرها كل صيغة ﴿يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولا يتسمّعها فلا يتفهّمها، حتى:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾:

إذا علم وتفهم في كرور الآيات ومرورها على مسامعه - علم شيئاً، لم يأخذها بعين الاعتبار، ولم يتذكر بها بل اتخذها هزواً، إهانة بها ومهانة ليسقطها عن أعين الناس ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كما أهانوا آيات الله، مهين بمهين، وأين مهين من مهين؟!

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢١-٢٢٣.

وترى العذاب المهين لهم - فقط - يوم الدين؟ كلّا! فإنه مُهان أينما كان وأيان، في حساب الله وحساب عباد الله، مهما تظاهر الشياطين في احترامه مصلحياً لهم وخوفاً منه، حيث الهازىء المهين بآيات الله بأحرى هو مهين بخلق الله، لا يعرف لمن سواه احتراماً إلّا اختراماً، ففي حين يُحترم خوفاً ومصلحياً، يُخترم واقعياً في الأولى، ثم:

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ دليل أن عذابهم المهين بادئ يوم الدنيا وإلى يوم الدين، ولا يغني عنهم هناك ما كسبوه من مال ومنال يملكونها ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ - إذ ملكتهم - شيئاً، ضعف الطالب والمطلوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فوق أنه مهين.

﴿هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

﴿هَـٰذَا﴾ القرآن البيان ﴿هُدًى﴾ تدوينية تجاوب هدى تكوينية، آيات وآيات تتعامل في «هدىً» فالضابطة العامة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ رغم هداها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والرجز أصله الاضطراب، فهنا مثلث العقاب الاضطراب الأليم، دركات يدركونها بميزانية تكذيب الآيات.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

خطوة رابعة رائعة للسالكين إلى الله لقوم يؤمنون ويوقنون ويعقلون أنهم يتفكرون، فيما سخر لهم البحر جرياً لفلكه بأمره ابتغاء فضله ولعلكم تشكرون، بل ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

وترى ذلك تسخير البحر وما في البر، فكيف سخر لنا ما في السماوات، وليس لنا خبر حتى الآن عن كثير مما في السماوات، بل ولمّا نخلّص خبر الأرض فأين ذلك التسخير وأنّى؟!

ذلك التسخير لكم له بُعدان، أصليّ هو لله حيث سهّل في الكون مسالك الإنسان وأقرانه لابتغاء فضله من بحر وبر وجوّ في الشعاع المستطاع لأيّ كائن، فقد نظم الكون بأجمعه بحيث ينتفع به كل كائن، علم ما سُخر له أم لم يَعلم، فالشمس بتسخير الله تجري لصالحنا كما لسائر الكون، والنجوم مسخرات بأمره، أمّا ذا من كائن في الأرض أو في السماوات ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: حال أن الجميع من المسخَّر والمسخّر له والمسخّر لأجله والمسخّر معه، منه لا سواه! ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾[1] إذاً فليس هناك تسخير من الإنسان أو أياً كان، وإنما تسخير لأجل الإنسان - وفوقه معه - كما سخر مع داود الجبال والطير.

ومن ثم تسخير لنا في بُعدٍ ثان أن هيأ لنا أسباباً عقلياً وعلمياً أمّا ذا للكشف عن رموز من الكون نستطيع على ضوئها الحصول على خبايا وخفايا في الأرض والسماء تجمعها كافة المحاولات العلمية في مختلف الحقول في تقدم متواتر.

فالكشوف الذرية والأشعة ما فوق البنفسجية وأضرابهما من كشوف علمية وحتى نزولنا إلى القمر أمّا ذا من أجواء عالية وكرات، كل ذلك مما سخّر لنا، ولكن على ضوء الجهود المتواصلة، وإن كانت هنالك تسخيرات لصالحنا من الكون كله ننتفع بها دون وسيط أم بوسيط بسيط كالفلك التي تجري في البحر بأمره أمّا ذا من خلفيات ونتائج في تسخيرات تصلنا دون غور في خِضِمِّ الاكتشافات الملتوية الصعبة والشائكة.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

ومهما كانت هنالك فوارق بين هذه وتلك ولكنها ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ دون استقلال في أي استغلال للإنسان إلّا على ضوء القوانين المقررة الكونية من ناحية، والاستعدادات المتعالية الإنسانية من أخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[1] فـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[2].

فلا يعني التسخير لنا أو معنا أن نستقل فيما سُخّر لنا، أو المناحرة مع المسخِّر ضد صالح الكون، وإنما السلوك في السبل الكونية جلية وخفية، المقررة لنا.

فمثلاً مكائن التفريخ وأمثالها مما نستبدلها من مخترعاتنا بما خلق الله، إنها من تسخير الله في بُعد ثان، حيث هدانا إليها بما نبذل من جهود ونصرفها من طاقات وإمكانيات و﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فالفكر حركة من المبادئ ومن المبادئ إلى المراد، وهذه الحركة الفكرية في الكون المسخر لنا من الآفاق والأنفس، من الأرض والسماوات وما فيها من خبايا وطاقات كامنة منتظمة، إنها آيات دالات على مدبر حكيم سبحان الخلاق العظيم.

فهنالك إيمان وايقان وتعقل وتفكير مع ركب الكون كآيات إلهية ربانية، توصلنا إلى خالق الكون.

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٣٢-٣٤.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٣.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أيام الله وما هي أيام الله؟ أليست كل الأيام لله حتى تقتسم الأيام بما لله وما لغير الله؟ وكل مكان وزمان لله!

أجل الأيام كلها من الله ولله، ولكن - الظاهر فيها حكم الله، والحاكم فيها الله لا سواه - ليست هي كل الأيام، فكما أنه مالك يوم الدين وإن كان مالكاً ليوم الدنيا، كذلك في الدهر أيام خاصة بالله لا دور فيها لسواه، كيوم الرجعة ويوم البرزخ ويوم القيامة، فالأول رغم كونه في الأولى هو من أيام الله حيث الحاكم فيه بقية الله عليه سلام الله، والآخران هما لله إذ تقطعت

الأسباب فلا حكم إلا لله ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(١).

ليس يخص أيام الله بالأخرى فإنه يوم لا أيام، ولا هو مع البرزخ الوسطى فإنهما يومان لا أيام، وأقل الجمع ثلاث، فالقدر الثابت من أيام الله ثلاث، وقد تكون هي الأصيلة وأيام أخرى على هامشها!

لا نجد أيام الله في سائر القرآن إلّا هنا وفي إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٢) (٣).

في الدنيا لله أيام مركزها الرئيسي يوم الرجعة والقائم، ثم وعلى ضوئه كل يوم يغلب فيه حكم الله، فهو إذاً يوم واحد تجمعه بركات الله على أوليائه، ومنذ الموت حتى القيامة يوم، واليومان محدودان، ومن ثم القيامة الكبرى دون حدّ إلّا ما يحدّده عدل الله في أهل الجحيم حيث يفنون أخيراً بفناء الجحيم.

والذين لا يرجون أيام الله هم الناكرون والمترددون في هذه الأيام، دولة عالمية، ثم برزخ، ثم قيامة، وبصيغة أخرى: قيامة صغرى ثم وسطى ثم كبرى هي أيام الله التي لا يرجوها إلّا أهل الله.

من حق أيام الله أن تُرجى إذ تعني هذه الثلاث، أو تخاف كأيام العذاب الاستئصال، والثانية لمن لا يرجو الأولى.

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

(٣) هنا روايات ثلاث إحداها ما رواه العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] قال: بآلاء الله يعني بنعمته، والثانية في كتاب الخصال عن مثنى الحناط قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: أيام الله يوم القائم ويوم الكرة ويوم القيامة، والثالثة ما أورده القمي في تفسيره في الآية قال: أيام الله ثلاثة: يوم القائم عليه السلام ويوم الموت ويوم القيامة.

وترى كيف يؤمر الذين آمنوا أن يغفروا للذين لا يرجون أيام الله وهم خطر وشرر على الكتلة المؤمنة؟ ثم وكيف يغفرون وليس الغفر إلا بيد الله، وهو أيضاً لا يغفر حيث غفْرهم يعني ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؟!

الغفر وهو الستر والإغماض، قد يعني غفراً إلهياً لا يتكفله غير الله ولا سيما فيما الله واعد فيه العذاب كما هنا، أم غفراً بشرياً فيما يحق له الانتقام ولا يسطع أم لا تناسبه الظروف كما في العهد المكي، فليغفر حتى يأتي الله بأمره كما في العهد المدني، أم غفراً في الدعوة غير الناتجة لمن كتب عليه العذاب حيث الإنذار وسواه عليه سواء، فليغفر الإنذار إعراضاً عن الدعوة ليذوقوا وبال أمرهم ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ وهذا الغفر يستمر في كافة العهود الرسالية للذين آمنوا.

إذاً فآية الغفر ليست منسوخة بآيات القتال المكية حيث الغفر الأخير مستمر في ممرات الدعوة، والثاني مستمر في ظروفه طوال الدعوة، مهما كان العهد المكي من أبرز مصاديقه، فللمسلمين عهود تختلف، ولكل ظرف عهده من قيام وقعود وحرب وصلح، ومن الغفر للذين لا يرجون أيام الله ترك الدعوة حين لا تؤثر إلّا مزيد الطغيان فحرب وإبادة، كما منه تركهما إذ لا يسطع المحاربة، وكلّ يتطلب ظرفه المناسب له، والظرفان مشتركان في استحقاق العقوبة ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

فالغفر - إذاً - قد يكون رحمة من الله أو من أهل الله كسائر موارد التسامح عن المذنبين، وقد يكون نقمة كما في ترك الدعوة مقاطعة لإقامة الحجة للذين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وهذه المقاطعة

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

تزيد المقطوع عنه طغياناً وكفراً فعذاباً فوق العذاب، أم في ترك الانتقام إذ لا تسطع فإلى الله المصير فيما لا تسطع ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

كما ومن الغفر واجب ومنه راجح ومنه محرم، ولا يؤمر الذين آمنوا إلا بغير المحرم، فترك ملاحقة الكفار والمفسدين عند المكنة محرم، وترك الأمر والنهي في ظروفهما المتطلّبة لهما محرم، وترك الدعوة فيما تؤثر أو تزيد حجة محرم، فمثلث الغفر هذه محرم لا تعنيه آية الغفر هذه كما لا تعني الغفر المستحيل وهو السماح عن الذنوب الخاص بالله.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

فكل من العمل الصالح والطالح يرجع بلزام آثاره إلى عامله، مهما أثر في الآخرين، فمن سن سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أجورهم، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيئاً، جزاءً من ربك عطاء حساباً وعقاباً وفاقاً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

ذلك بيت إسرائيل، أوتي مثلثاً من الرحمة: الكتاب والحكم والنبوة،

(١) نور الثقلين ٣: ١ ح ٦ عن تفسير القمي في الآية قال: يقول أئمة الحق لا تدعون على أئمة الجور حتى يكون الله الذي يعاقبهم في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤] حدثنا أبو القاسم قال حدثنا محمد بن عباس قال حدثنا عبد الله بن موسى قال حدثني عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال حدثنا عمر بن رشيد عن داود بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: قل للذين منا عليهم بمعرفتنا أن يعرفوا الذين لا يعلمون فإذا عرفوهم فقد غفروا لهم، أقول ليست معرفتهم غفراناً لهم إلا في تاركة الدعوة حيث أيسوا بما عرفوهم من هداهم.

في الرعيل الأعلى منهم، ومن ثم رحمة عامة: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فقد جمعت لهذا البيت المفضل على العالمين مجامع الرسالة، من رسول جمعت له ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ كموسى والمسيح عليهما السلام كتاب مستقل وحكم رسالي مستقل ونبوة ورفعة في الحكم الكتاب.

ومنهم من أوتي كتاباً برسالة دون حكم ولا نبوة، اللهم إلّا حكماً مَلكياً كداود وسليمان، أم حكماً على هامش ولي العزم كسائر الحكم في سائر المرسلين، وأما النبوة المطلقة وهي رفعة في الحكم الرسالة فهي لولي العزم خاصة، فكل نبي رسول وليس كل رسول نبياً فـ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1].

ومنهم من أوتي حكماً دون كتاب ولا نبوة كطالوت ملك إسرائيل، حكماً على ضوء الرسالة وليس حاكمه من الرسل، فما أوتي كتاباً فضلاً عن نبوة.

ثم الذين لم يؤتوا كتاباً ولا حكماً ولا نبوة في أنفسهم، عاشوا مثلث هذه الرحمة، حيث كانت لهم وإليهم كرأس الزاوية الرسالية، ثم وهم رزقوا من الطيبات وفضلوا على العالمين.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾:

هنا ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ من أمر الشرعة التوراتية، وبينات من أمر الآية الرسالية، آيات بينات تكوينية وتدوينية، حاسمات فاضلات لا غموض فيها ولا عوج ولا انحراف، بينات ربانية كالشمس في رابعة النهار لا تدعو إلى اختلاف، وإنما إلى العلم الواضح.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ﴾ في بينات الأمر رسالة وكتاباً ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ بغياً على البينات، وعلى حملة البينات بعضهم على بعض، وبغياً على الأمة، تحريفاً كما يهوون، وتجديفاً كما يشاؤون ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ولقد وصل أمرهم في اختلافهم في أمرهم إلى حد من نُكرهم في إمرهم لا يتحمل، إلّا أن يتحول أمر الشرعة إلى غيرهم وكما هددوا في التوراة ولكن لا حياة لمن تنادي!

في العهدين الجديد والعتيق بشارات بانتقال أمر الشرعة الإلهية إلى بيت إسماعيل في الرسالة المحمدية ﷺ ونموذجاً منها ما في حزقيال ١٩: ١٠ - ١٤ «أمّك مثل كرمة غُرست على المياه فصارت كثيرة الثمار والأفنان من غزارة المياه (١٠) وصارت قضبان صلبة صوالجة للسلاطين وارتفع قوامها بين الفروع الملتفة فظهرت في ارتفاعها وكثرة عذباتها (١١) ثم إنها قلعت بحنق وطرحت على الأرض فأيبست الريح الشرقية ثمرتها وكُسرت قضبانها الصلبة وأكلتها النار (١٢) والآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة ظمئة (١٣) فخرج من قضبان شُعبها نار أكلت ثمرتها فلم يبق فيها قضيب صُلب صَولجان للتسلط هذا رثاءٌ ورثاءٌ سيكون (١٤).

فالكرم هنا إبراهيم حيث المخاطب في أمك إما حزقيال أو كافة بني إسرائيل، فالأغصان هي نسل إبراهيم من بيت إسرائيل، إذ سكنوا فلسطين فنموا وريّوا وتمتعوا فتحصلت من هذه الأغصان قضبان صلبة هي النبوة الإسرائيلية، «ثم قلعت بحنق وطرحت» وهي انقضاء الحكم والنبوة والكتاب عنهم «والآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة. . .» هي برية فاران أرض الحجاز، حيث تحولت القضبان الإسرائيلية من هذه الشجرة الإبراهيمية إلى قضبان إسماعيلية في الرسالة الأخيرة المحمدية، والنار الخارجة منها هي الشريعة النارية التي هي نار للشاردين ونور للواردين، نارٌ تحرق كل أغصان

الباطل، وتورق أغصان الحق من تلك الشجرة الطيبة..»[١].

ذلك ما تلمح به آي من الذكر الحكيم، حين تذكر رحمة الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم على العالمين:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾:

إنه لا بد من حكم في الجماهير المحتشدة المختلفة، فإما شريعة من أمر الله وإما شرعة الأهواء الهباء، فلا وسط بينهما ولا أنصاف حلول، فشرعة الأهواء الخالصة أو الملتقطة من الشرعتين هما على سواء، وقد تكون الضلالة في شرعة الالتقاط أعمق وأهوى، حيث تبرز الحق بمظهر الباطل ليتجنب، والباطل بمظهر الحق ليُتّبع، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى! فلا يترك أحدٌ شرعة الله إلا ليحكِّم الأهواء، فكل ما عدى شرعة الله الخالصة هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون، سقطات في هوّات ولأتباع ضلالات!

أمر الله - وهو دينه - واحد والشرائع إليه عدة تنحو منحى واحد، مهما اختلفت الشكليات حسب مختلف القابليات والبليات: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٢] [٣].

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٣١ - ٣٢ - وفيه بشارات أخرى كهذه تدل على انتقال الشريعة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) راجع تفسير الآية في الشورى تجد فيها بحثاً مفصلاً يساعدك على ما هنا من أمر الشرعة الأخيرة.

إن الأمر الدين هو كتاب الوحي ورسول الوحي ببينات الوحي، وفي هذا المثلث تُرسم شرعة من الأمر، وشريعة من الأمر - الأخيرة - هي تحمل الأمر كله، والشرائع المستقدمة عليها تهيئات لها ومبشرات بها، ومحضِّرات إياها للعالمين إلى يوم الدين.

اتباع هذه الشرعة منذ بزوغها إلى يوم الدّين هو الدين كله، والأمر كله، كما اتباع سواها اتباع لأهواء الذين لا يعلمون، على دركاتهم في الـ «لا يعلمون» من ملحدين ومشركين وكتابيين أو ومسلمين التقاطيين أمّن ذا من هؤلاء الذين ينجرفون عن محض شرعة الإسلام إلى غير محضها، مهما كان خليطاً منها وسواها، أم كلّها سواها أم ماذا؟

إنها شريعة واحدة تستحق هذه السمة «فاتبعها» ثم ولما عداها ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولماذا تتبعها تركاً لشرعة الله أو لشيء منها؟ هل ليغنوا عنك من الله شيئاً في تشريع شرعة، ولا مشرّع إلّا الله ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾!.

أم ليغنوا عنك بديلاً عنها أو عن بعضها نصرة لك في الدعوة أو كثرة في اتباع الدعوة فـ «لن..» فإنهم وأنصارهم إذاً أتباع أهوائهم دون هذه الشرعة!

أم ليغنوا عنك يوم القيامة بديلاً عن عذاب الله؟ و«لن..» فإنهم يكفيهم ما هم فيه من عذاب عظيم! أماذا من إغناءٍ ترجوه منهم فـ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فلا يغني عنك من الله هنا وفي أيام الله إلّا الله، وهو لا يغني إلّا المتقين المتحرزين عن اتّباع الأهواء.

١١٩ إن الظالمين بأمر الله وشرعته وبرسول الله وكتابه، هم بعضهم أولياء بعض، فلا تكن من هؤلاء الأبعاض فـ ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دون الظالمين.

فاتّباع غير هذه الشريعة من الأمر ظلم وضلال مهما كان في حكم مصلحياً أو أحكام، فشريعة الله لا يتاجر بها، ولا تخالطها أهواء الذين لا يعلمون.

هكذا يؤمر الرسول فأحرى بمن سواه من المكلفين إلى يوم الدين أن يتخذوا شرعة القرآن وعلى هامشها السنة الإسلامية، يتخذونها لا سواها نبراساً ينير الدرب على الحائرين، ومتراساً يجابهون به المائرين!